القصر

الأصل في كل جملة أن تتناول حكما واحداً إما بالإيجاب أو السلب، فمثلاً: تعبر السفن الصديقة القناة، تتضمن الجملة حكما مثبتا ، وإذا قلنا: لا تعبر السفن المعادية القناة، تتضمن الجملة حكماً سلبياً، وهو نفي عبور السفن المعادية القناة، وفي الأساليب العربية متسع لأن نؤدي هذين الحكمين المختلفين في الإيجاب والسلب في جملة واحدة، فيقال : لا يعبر القناة إلا السفن الصديقة، وهذه الجملة نراها قد تضمنت معنى الجملتين السابقتين، فقد أفادت ثبوت عبور السفن الصديقة القناة، وأفادت ضمنا في الوقت نفسه نفي عبور السفن المعادية لها، وفي هذا الأسلوب تخصيص العبور في القناة بالسفن الصديقة، فجملة القصر هذه في قوة جملتين، فهو طريق من طرق الإيجاز في التعبير، كما أنه يقصد منه تمكين الكلام وتقريره في الذهن.

وكل أسلوب فيه هذا النوع من التخصيص ويفيد حكمين مختلفين في الإيجاب والسلب، يسميه علماء البلاغة (أسلوب القصر).

إلا أن العلماء التزموا في هذا الأسلوب أن يجري على صورة خاصة، وذلك بأن يستعمل فيه أدوات بذاتها لتفيد القصر، وإليك البيان:

١-قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[البقرة:٢٢].

٢-وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾[محمد:٣٦].

٣-وقال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥].

٤-وقال الشاعر:

عُمْرُ الفتَى ذكرهُ لا طولُ مدتّه ومـوتـه خـزيُـه لا يـومُـه الـداني

في الآية الأولى قصد تخصيص معنى الألوهية بالله ﷻ وأنها لا تتجاوزه إلى غيره، وفي الثانية قصد تخصيص الحياة الدنيا باللهو واللعب.

وهذا النوع من التخصيص يسمى في علم المعاني « القصر » وهو -كما نشاهد- واقع بين أمرين أحدهما يسمى « مقصوراً » والثاني يسمى « مقصوراً عليه » ففي الآية الأولى نجد المقصور هو « صفة الألوهية » والمقصور عليه « الحي القيوم » وفي الثانية نجد المقصور « الحياة الدنيا » والمقصور عليه صفة « اللهو واللعب » وهكذا في كل أسلوب قصر لابد من مقصور ومقصور عليه، ويسميان « طرفي القصر ».

ولا يخرج القصر عن كونه قصر صفة على موصوف كالآية الأولى، أو موصوف على صفة كالآية الثانية.

وإذا بحثنا عن الشيء الذي أفادنا معنى القصر، نجده يعود إلى وجود « النفي والاستثناء » في الآية الأولى، و « إنما » في الآية الثانية، وإلى تقديم ما حقه التأخير في الآية الثالثة، فالمفعول به « إياك » حقه التأخير عن الفعل، والأصل: نعبدك، ولكن المفعول قدم لإفادة القصر. فليس هناك معبود غيرك، وفي هذا من التحقير للأصنام وعابديها ما فيه.

وهناك قصر بطريق العطف بـ « لا » كالبيت الأخير ، وبـ « بل ، ولكن » أيضاً، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

فليس الشهداء أمواتاً ولكنهم أحياء لا نشعر بحياتهم ولتأكيد هذا الحكم قصروا على الحياة -موصوف على صفة، إضافي.

وهذا القصر قلب الحكم السابق وأثبت عكسه -الحياء- إثباتاً مؤكداً.

ووجه التأكيد في مثل هذا القصر: أن قوله تعالى: لا تقولوا في هؤلاء أنهم أموات يفيد أنهم أحياء ضمنا، فلما قال أحياء أثبت لهم الصفة صراحة، وبهذا فقد أثبتت لهم الصفة مرتين.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فالتنصـــيص على شـــريته لهم مع معرفته ذلك من نفي خيرته للمبالغة في ذلك.

وموقع المقصور عليه هو ما بعد أداة الاستثناء إذا كان طريق القصر النفي والاســتثناء، كما في الآية الأولى، ويكون هو المؤخر إذا كانت الأداة « إنما » ، ويكون هو المقدم إذا كان الطريق التقديم.

أما العطف بـ « لا » فالمقصور عليه هو المقابل لما بعدها –وهو المعطوف عليه- مثل « ذكره » في البيت الأخير فهي التي تقابل « لا طول مدته » وفي العطف بـ « بل ، لكن » المقصور عليه هو ما بعدهما.

وهناك قصر بغير هذه الأدوات مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[البقرة:١٠٥]

وقولنا: محمد رســول الله مقصــور على الرســالة، أو محمد رســول الله فحسب، فلا يسمى مثل ذلك قصرا اصطلاحياً وإن أفاد معنى القصر.

وخلاصة القول:

١-القصـــر لغـة: الحبس: ومنـه قولـه تعـالى: ﴿ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴾ [الرحمن:٧٢] أي محبوســـات فيها ومقصـــورات على أزواجهن لا ينظرن إلى رجال غيرهم.

وفي اصطلاح البلاغين: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص.

٢-لابد في القصر من طرفين هما: المقصور، والمقصور عليه.

٣-القصر نوعان: صفة على موصوف، وموصوف على صفة.

٤-طرق القصر الاصطلاحية أربعة هي[1]:

---

(١) هناك طريقان هما: توسط ضمير الفصل مثل: كليم الله هو موسى: تعريف المسند بأل مثل: خير الزاد التقوى.

أ-النفي والاستثناء، والمقصور عليه هو ما بعد « إلا » .

ب-إنما، والمقصور عليه هو المؤخر دائماً.

جـ-تقديم ما حقه التأخير، والمقصور عليه هو المقدم.

د-العطف بـ « لا، بل، لكن » والمقصور عليه –إذا كان الطريق العطف بـ« لا » المقابل لما بعدها، وإذا كان الطريق « بل ، لكن » كان ما بعدهما.

أقسام القصر:

أولاً: الحقيقي والإضافي:

١-قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران:٦٤].

٢-الشاعر شوقي لا المنفلوطي، أعجبت بكرم حاتم لا شجاعته.

الآية تتضمن قصراً حيث أفادت قصر العبادة على الله ونفيها عن غيره، فالعبادة ثابتة لمعين –وهو الله- ومنفية عن غير هذا المعين.

وإذا قلنا: « لا يحج إلا المسلمون » أفادت الجملة إثبات الحج للمسلمين ونفيه عن غيرهم من الملل، فالحج إلى مكة ثابت لمعين –وهم المسلمون- ومنفي عن كل من عدا هذا المعين، وكل ما كان النفي فيه عاماً يشمل كل من عدا المقصور عليه يسمى قصراً حقيقياً » .

أما إذا قلنا: الشاعر شوقي لا المنفلوطي، فقد قصرت صفة الشاعرية على شوقي –ليس بالنسبة إلى كل الناس- بل بالنسبة إلى المنفلوطي فقط، فالنفي هنا خاص لا عام.

وإذا قلنا: أعجبت بكرم حاتم لا شجاعته، قصر حاتم على الكرم- ليس بالنسبة إلى كل صفات كالأكل والشرب وغيرهما بل بالنسبة إلى صفة خاصة وهي الشجاعة –أي أن له صفة الكرم لا صفة الشجاعة، وكل ما كان النفي فيه خاصاً وبالنسبة شيء معين فهو القصر الإضافي.

وخلاصة القول:

ينقسم القصر بحسب اعتقاد المتكلم إلى: قصر حقيقي، وقصر إضافي.

القصر الحقيقي: ما اختص فيه المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتجاوزه إلى غيره.

القصر الإضافي: ما اختص فيه المقصور بالمقصور عليه بالنسبة لشيء معين.

ثانيا: قصر الصفة على الموصوف، والموصوف على الصفة:

١-قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[الأنعام:٥٩].

٢-وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[آل عمران:١٤٤].

٣-ما خطيب إلا زياد.

في الآية الأولى قصرت صفة الغيب على الله سبحانه قصرا حقيقياً –صفة على موصوف- وفي الآية الثانية قصر محمد ﷺ على صفة الرسالة قصراً إضافياً فهو رسول لا يتعدى الرسالة إلى الخلود.

وفي المثال الثالث قصرت صفة الخطابة على زياد قصرا إضافياً- لأن الخطابة لا تتعداه إلى رجل بعينه كالحجاج مثلاً.

ومعنى قصر الصفة على الموصوف: إن الصفة لا تتجاوز هذا الموصوف إلى غيره، وقد يكون لهذا الموصوف صفات أخرى، ففي الآية الكريمة ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[آل عمران]، قصرنا صفة الألوهية على الله تعالى، فلا تكون لغيره، ولله صفات أخرى غير الألوهية.

ومعنى قصر الموصوف على الصفة عدم تجاوز الموصوف هذه الصفة، وإن كانت الصفة نفسها لموصوف آخر، ففي: « عالم أنت » قصرنا المخاطب

على صفة العلم فلا يجاوز هذه الصفة وهي أنه عالم إلى غيرها، وهي أنه شاعر مثلاً، ولكن ليس في الأسلوب ما يمنع أن تكون الصفة المقصور عليها لغيره من الناس.

وإذا وقع الجار والمجرور موقع المقصـــور عليه، فإن كان متعلقاً بفعل هو المقصور، فالمقصور عليه هو المجرور كما في قول الشاعر:

إلى الله أشـــكُو، لا إلى النـاس إنّـني أرى الأرض تبقى، والأخلاءُ تـذهـبُ

وإن كان الجار والمجرور متعلقاً بصفة – وفي الحالة يكون المقصور اسماً – فالمقصور عليه هو متعلق الجار والمجرور، كما في قولك:« إلى الله المشتكى »، « المشـتكى » مقصـور، «إلى الله» متعلق بــــ (حاصـل) – مثلا – فهذا هو المقصور عليه.

والأول من قبيل الصـفة على الموصـوف، والثاني من قبيل الموصـوف على الصفة[٢].

وقصـــر الخبر على المبتدأ كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [المائدة]. من قبيل قصـر الصـفة على الموصـوف، فالمقصـور – متعلق الجار والمجرور، والمقصـــور عليه – البلاغ، فوظيفة الرســول البلاغ لا غيره من الحساب، والثواب، والعقاب، والهداية.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾[٣] [الرعد].

المراد بالصفة والموصوف:

ليس المراد بالصـفة النعت النحوي[٤]، وإنما المراد: الصـفة المعنوية وهي

---

(٢) توضيح المعاني (٨٦).

(٣) للإمام عبد القاهر والزمخشري رأى في هذه الآية الكريمة.

(٤) النعت النحوي لا يقع بينه وبين منعوته قصر، فالقصر يقتضي الفصل بإلا لفظاً كما في « ما وإلا » أو معنى كما في « إنما » والصفة لا تفصل عن موصوفها.

المعنى الذي يقوم بغيره المقابل للذات، مثل: ما محمد إلا أخوك، ما الباب إلا خشب، ما حاتم إلا يجود.

والمراد بالموصوف: كل ما يقوم به غيره، وغالباً أن يكون ذاتاً، وقد يدل في نفسه على معنى قائم بغيرها، وقول النبي ﷺ: « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » من قصر الموصوف على الصفة، أي ما الصبر إلا الكائن عند هذه الصدمة، ولا يخرج القصر عن كونه صفة على موصوف أو موصوفاً على صفة.

وخلاصة القول:

ينقسم القصر بحسب حال المقصور إلى قصر صفة على موصوف، أو موصوف على صفة.

١-قصر الصفة على الموصوف: ألا تتجاوز تلك الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر –إذا كان القصر حقيقياً- أو إلى موصوف آخر معين- إذا كان القصر إضافياً، وهذا لا يتنافى أن يكون للموصوف صفات أخرى.

٢-قصر الموصوف على الصفة: ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى –إذا كان القصر حقيقياً- أو إلى صفة أخرى معينة –إذا كان القصر إضافياً[٥].

٣-قصر الموصوف على الصفة –حقيقياً- لا يكاد يوجد إلا على سبيل المبالغة والادعاء.

ثالثاً: قصر الإفراد، والقلب، والتعيين:

١-ما تفوق الجيش في الحرب الماضية إلا في المدرعات.

٢-قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[المائدة:٧٣].

---

(٥) المنهاج الواضح (٨).

٣-وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٣].

إذا وصف الجيش واصف فقال: ما تفوق الجيش إلا في المدرعات ، فحالة المخاطب إزاء هذا الخبر إما أن يكون معتقداً أن تفوق الجيش في المدرعات والطيران، فيكون هذا رداً على من اعتقد ذلك، وحينئذ يكون هذا المثال قصر إفراد.

وإذا كان المخاطب يعتقد أن التفوق في الطيران لا في المدرعات، كان القصر قصر قلب، وإذا كان متردداً ولا يدري أحدهما على التعيين كان القصر قصر تعيين.

وهذا التقسيم إلى « إفراد وقلب وتعيين » إنما يكون بملاحظة حال المخاطب، وهو لا يتأتى في القصر الحقيقي، لأن القصر فيه يكون بالنسبة إلى ما عدا المقصور عليه على الإطلاق، فلا يمكن أن يتصور فيه الشركة أو العكس أو التردد، على نحو ما عرف في الإضافي الذي يجري فيه القصر بالنسبة لشيء معين.

وفي الآية الكريمة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ يخاطب القرآن بأسلوب القصر من يعتقد الشركة فيثبت بهذا الأسلوب الحكم لواحد، وينفيه عن غيره -قصر إفراد-.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ فقد كان المنافقون يعتقدون أن المؤمنين سفهاء دونهم، فقلب الله عليهم اعتقادهم -قصر قلب-.

وخلاصة القول:

قصر الإفراد: إذا اعتقد المخاطب المشاركة في الحكم بين المقصور عليه وغيره.

قصر القلب: إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي أثبت بالقصر.

قصـــر التعيين: إذا كان المخاطب متردداً في الحكم بين المقصـــور عليه وغيره.

ويشـترط في قصـر الموصـوف على الصـفة إفراد: عدم تنافي الوصـفين، وقلبا: تنافي الوصفين.

الإنشاء: الإنشاء الطلبي وغير الطلبي.

أ-قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمرن:١٦٩].

وقال تعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر:٢٤].

وقال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ﴾ [البقرة:١٤٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [هود:٤٤].

ب-قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات:٤٨].

وقال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٧٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦].

وقال تعالى: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ ﴾ [المائدة:٥٢].

إذا لاحظنا صيغ الإنشاء في الآيات السابقة وجدنا أنها تنقسم إلى نوعين:

الأول: ويطلب فيه حصول شيء غير حاصل، وهذا يشمل الأمثلة الخمسة الأولى وهي: الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء. وهي كلها لا تحتمل صدقاً ولا كذباً، ولا وجود لمطلوبها قبل النطق بها، ولذلك يسمى الإنشاء فيها طلبياً، وهو الذي يهتم به علماء البلاغة ويبحثونه في علم المعاني.

فإذا استعملت صيغ الطلب هذه في مطلوب حاصل عند الطلب امتنع إجراؤها على حقيقتها، وأريد منها معنى آخر يناسب المقام، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء:١٣٦] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:١] فكل من (الإيمان والتقوى) حاصل وقت الطلب، لهذا

امتنع إجراء صـــيغة الطلب فيهما على معناها الذي هو طلب الحصـــول، وأريد طلب دوام هذا الحصول، والمعنى على هذا: طلب دوام الإيمان والتقوى.

الثاني: ويسمى الإنشاء غير الطلبي، لأنه لا يستدعي مطلوباً، وهذا يشمل الأمثلة الخمســة الأخيرة، وهي: صــيغ القســم، وأفعال المدح والذم (كنعم وبئس وحبذا ولا حبذا) وصيغ الترجي (كلعل وعسى) وصيغ العقود (كبعث واشتريت) وفعلى التعجب، مثل (ما فعله وأفعل به) وهذه الصـــيغ لا تدخل في حســـاب البلاغيين لقلة الأغراض المتعلقة بها.

الخلاصة:

الإنشاء ينقسم إلى نوعين:

١-ويشمل صيغ الأمر، والنهي ، والتمني، والاستفهام، والنداء.

٢-له صيغ كثيرة منها: القسم، وأفعال المدح والذم، وصيغ العقود، وصيغتا التعجب.

الإنشاء الطلبي:

١ـالأمر:

١-وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ [هود:٣٧].

٢-وقال تعالى: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾[البقرة:٢٨٢].

٣-وقال تعالى: ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥].

٤-وقال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ [النساء:٣٦].

الآيات السابقة كل منها جملة إنشائية يطلب فيها إنفاذ أمر لم يكن حاصلاً قبل الطلب، و هذا الأمر يطلب عادة من جهة آمرة أعلى من الجهة المأمورة، وهذا ما يعرف بالأمر الحقيقي وصيغة أربع وهي كما في الآيات على الترتيب: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر.

وقد تخرج صيغة الأمر عن هذا المعنى الحقيقي إلى معان أخرى مجازية تستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال، وهي معان كثيرة منها:

١-الدعاء: وهو الطلب على سبيل التضرع، ويكون في صيغة الأمر إذا صدرت من أدنى إلى أعلى منزلة، مثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴾ [طه:٢٥-٢٩] فأفعال الأمر الأربعة في الآية الكريمة المارد منها التوجه إلى الله والتضرع إليه والدعاء له، إذ ليس من المعقول أن يأمر العبد المولى ﷻ .

ومنه قول المتنبي مخاطباً سيف الدولة:

أَزِلْ حَسَدَ الحسّاد عنّي بَكَبْتِهم ... فأَنْت الذي صيرتَّهم لي حُسَّدا

٢-التسوية: وتكون في مقام توهم المخاطب فيه رجحان أحد الأمرين على

الآخر، كقوله تعالى: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾[الطور:١٦] فقد يتوهم المخاطب أن الصبر نافع، فيدفع هذا التوهم بالتسوية بين الصبر والجزع، ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ ﴾[التوبة:٥٣]، فقد يتوهم المخاطب ا، الإنفاق طوعاً مقبول فيدفع ذلك بالتسوية بينهما.

٣-الإباحة: وتكون في مقام توهم المخاطب عدم جواز فعل الشـــيء، فيدفع التوهم بأنه مباح ولا حرج فيه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾[البقرة:١٨٧].

فالأمر المراد منه إباحة الأكل والشـــرب في ليالي رمضـــان حتى طلوع الفجر، والتعبير بصـيغة الأمر في مكان الإباحة على تناول السـحور وكأنه أمر مرغوب فيه.

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الجمعة:١٠].

٤-التخيير: ويكون في مقام التخيير بين شـــيئين أو أشـــياء فيختار بينهما، كقول بشار:

فـعِـشْ واحـداً أخـاك فـإنـه ... مـقـارفُ ذنـب مـرة ومُجَـانـبْـه

والفرق بين التخيير والإبـاحـة: أن التخيير لا يجوز الجمع بين الشـــيئين، والإباحة تجوزه، ففي الإباحة إذن بالفعل وإذن بالترك.

٥-الالتماس: وذلك إذا كانت صـــيغة الأمر من ند إلى نده، كقول مالك بن الريب:

فيا صـاحبي رحلى، دنا الموت فانزلا ... بـرابـيـة إني مـقـيـم لـيـالـيـا

٦-التهديد: ويكون في مقام عدم الرضا بالمأمور به، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم:٣٠].

٧-التعجيز: ويكون في مقام إظهار عجز من يدعى قدرته على فعل أمر

ما، وليس في وسعه ذلك، كقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣]، فالمراد من الأمر في الآية: إظهار عجزهم عن الإتيان بمثل سورة من القرآن لأنه خارج عن طوقهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٨].

٨-الإهانة والتحقير: وتكون في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة المبالاة به، كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩]. فالكافر لا يمكنه الذوق، ففي الأمر تهكم واستهزاء بمن حاد عن الحق، وكقوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٣٨].

٩-الإرشاد: كقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال:٥٧].

١٠-الامتنان: مثل قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [النحل:١١٤].

الخلاصة:

١-الأمر، طلب الفعل على جهة الاستعلاء، وله صيغ أربع هي: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر.

٢-تخرج صيغة الأمر عن معناها الحقيقي إلى معان أخرى تفهم من السياق منها: الدعاء، والتسوية، والإباحة، والتخيير والالتماس، والتهديد، والتعجيز، والإهانة، والإرشاد، والامتنان.

٢-النهي:

١-قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام:١٥٢].

٢-وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢].

وقد تخرج صيغة النهي عن معناها الحقيقي إلى أغراض أخرى تفهم من السياق وتعرف بقرائن الأحوال، منها:

١-الدعاء: كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران:٨]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٦]. فالنهي صادر من العبد إلى الذات العلية على جهة التضرع والدعاء.

٢-الالتماس: كقوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾[طه:٩٤]. وكقول الشاعر:

خَلِيلي من بيْن الأخلاَّء لا تكن ... حِبالكما أُنشوطةٌ من حباليَا

فالشاعر يلتمس من أخويه الأثيرين عنده ألا تكون مودتهما وصحبتهما أنشوطة -أي واهية وغير وثيقة- فالنهي في كلا المثالين من ند إلى نده دونما استعلاء أو إلزام.

٣-الإرشاد: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[المائدة:١٠١]، وقال أبو العلاء:

ولا تجلس إلى أهل الدنايا ... فإِن خَلائق السفهاء تعدى

فالنهي في كلا المثالين المراد منه النصح والإرشاد.

٤-التوبيخ: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات:١١]، وكقول الشاعر:

لا تحْسب المجد تمراً أنت آكلهُ ... لن تبلغَ المجدَ حتى تلعَق الصبرَا

فالنهي في كلا المثالين المراد منه التوبيخ.

٥-التيئيس: كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ﴾ [التحريم:٧]، وكقول المتنبي في سيف الدولة:

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا

٦-التمني: كقول الخنساء ترثى أخاها صخراً:

أعَيني جوداً ولا تجْمُدا ألا تبكيان لصخر الندى

الخلاصة:

١-النهي: طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء، وله صيغة واحدة، وهي المضارع المقرون بلا الناهية.

٢-تخرج صيغة النهي عن معناها الحقيقي إلى معان أخرى تفهم من السياق منها: الدعاء، الالتماس، الإرشاد، التوبيخ، التيئيس، التمنى.

٣-التمنى.

١-قال تعالى: ﴿يَـٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٣].

٢-وقال تعالى: ﴿ يَـٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧].

٣-وقال تعالى: ﴿ يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ ﴾ [القصص:٧٩].

٤-وقال تعالى: ﴿ يَـٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾ [الزخرف:٣٨].

في الآية الأولى عندما جاءها المخاض وخافت من تَقول الناس عليها -أن تكون قد ماتت قبل ذلك وكانت في عداد المتروكات، وفي الآية الثانية يتمنى المشركون عند معاينة الحساب أن يُرَدوا إلى الدنيا ليؤمنوا، وهذا التمنى في كلا الآيتين لا يرجى حصوله أبداً لأنه مستحيل الوقوع.

أما الآية الثالثة، والرابعة فالتمني فيهما ممكن الوقوع وجائز الحصول،لكنه بعيد المنال والتحقيق.

فالتمني طلب المحبوب الذي لا يرجى حصـــوله، إما لكونه مســـتحيلاً، أو بعيد المنال، أما إذا كان المطلوب مطموعاً في حصـــوله فيكون طلبه ترجياً، وتســـتعمل فيه ألفاظ الترجي كلعل وعســـى، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشـــورى:١٧] وقوله تعالى: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ [المائدة:٥٢].

وهناك أدوات، وهي:

١- هل: مثل قوله تعالى حكاية عن الكفار يوم القيامة: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾ [الأعراف:٥٣].

وقال ذو الرُّمَّة:

أمنزلي سَـــلمى ســـلامٌ عليكما … هل الأزمن اللائي مضـيْنَ رواجع؟

فهل « هل » في كل ذلك لم تســتعمل في الاســتفهام -إذ يقتضـــي ذلك عدم العلم بالمستفهم عنه، ولكنهم كانوا على علم به -فـــ« هل » هنا خرجت عنه إلى التمني، لغرض بلاغي مقصـود وهو: أن المطلوب في الأمثلة الســابقة مستحيل، لكن المتكلمين من فرط حيرتهم ودهشــتهم طارت عقولهم وظنوا أن غير الممكن ممكن فاستعملوا « هل ».

٢-لعل: كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] وكقول الشاعر:

أَسِرْب القَطَا هل من يعير جَناحَهُ؟ … لَعَلِّي إلى من قد هويت أطير

فبلوغ أسـباب السـموات، وطيران الشـاعر إلى أحبابه أمر مسـتحيل، وهذا يقتضـي استعمال أداة التمني الأصـلية « ليت » استعمل فيها « لعل » وهي تفيد الرجاء، لغرض بلاغي مقصود.

٣-لو: مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٠٢].

وكقول الشاعر:

ولَّى الشـــبـابُ حميدة أيامهُ		لو كان ذلك يُشترَى أو يرجع

فالمقام لليت -لأن عودة الحياة إلى الكفار، وعودة الشباب من الأمور المستحيلة، ولكن لشدة ما أصابهم تخبطوا، وعبروا بـ « لو » بدلاً من « ليت » لغرض بلاغي.

وإذا كان المطلوب مترقب الحصول كان طلبه ترجياً، ويعبر عنه بألفاظ الترجي -كما سبق- وربما استعملت « ليت » في مقام الترجي، كما في قول جرير:

أقولُ لها من ليل ليس طولُها		كطول الليالي: ليتَ صبحَكِ نوَّرَا

فانبلاج الصبح -وهو مترقب الحصول أبرزه الشاعر في صورة البعيد الحصول والمستحيل فعبر عنه بـ « ليت » وذلك لإبراز الشيء المرجو القريب الوقوع في صورة الشيء البعيد المستحيل، إشعاراً بعزته في اعتقاد المتكلم.

الخلاصة:

١-التمني: طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجي حصوله، إما لكونه مستحيلاً، أو بعيد الحصول.

٢-أداة التمني الأصلية « ليت » ، وقد يتمنى بـ « هل ، ولعل » لإبراز المتمنى المستحيل في صورة الممكن لكمال العناية به، كما يتمنى بـ « لو » لإبراز المتمنى في صورة الممتنع إشعاراً بعزته.

٣-الشيء الممكن حصوله يكون طلبه ترجياً، ويستعمل فيه أداة الترجي مثل « لعل وعسى » وقد تستعمل « ليت » للترجي لإبراز المرجو القريب في صورة المستحيل للإشعار بعزته.

٤-الاستفهام.

١-قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم:٧٧-٧٨].

٢-وقال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف:٣٩].

٣-وقال عمارة بن عقيل:

أَأَتْـرُكُ -إن قـلَّـت دراهـمُ خـالـد -زيـارتـه؟- إني إذاً لَـلَـئـيـم

في الأمثلة السابقة نرى السائل فيها يستفهم عن شيء لم يسبق له علم به بواسطة إحدى أدوات الاستفهام ، وهي:

١-الهمزة:

فالآية الأولى تدل على « أن ما ادعى أن يُؤتاه- ذلك الرجل المشرك- وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين: إما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟

فالله سبحانه يسأل هذا المشرك على سبيل الإنكار ويطلب منه تعيين واحد منهما.

وفي الآية الثانية يخاطب سيدنا يوسف صاحبيه في السجن ويطلب منهما أن يجيبا على سؤاله بواحد مما ورد في الآية.

والمسئول عنه بهمزة التصور هذه هو ما يليها مباشرة سواء كان المسند كالآية الأولى، أو المسند إليه كالآية الثانية، أو شيئاً من متعلقات الجملة كالمفعول مثل: أعصيرا شربت أم ماء؟، أو الحال مثل: أراكبا وصلت أو راجلا؟ أو ظرفاً مثل: أليلة الخميس شهرت أم ليلة الجمعة؟ أو المفعول لأجله مثل: أفجأة وصلت؟

ويسمى الاسم الذي يذكر بعد « أم » في همزة التصور « معادلاً » ، وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا كان المقام يدل عليه كقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٢]، والتقدير أأنت فعلت هذا أم غيرك؟

ويراعى في كل تركيب مع همزة بعد « أم » معادل لما بعد الهمزة، يقول تعالى: ﴿ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ ﴾ [الدخان:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ

﴾[النمل:٤٠].

وفي بيت عمارة نرى الاستفهام ليس عن الفعل -وهو الترك- ولا عن الفاعل -وهو المتكلم- ولا يطلب تعيين واحد منهما، لأن المتكلم متصور لكليهما، وإنما الشاعر فقط يسأل عن النسبة: نسبة ترك الزيارة للمتكلم.

وهمزة التصديق لا يذكر بعدها « أم » كبيت عمارة، فإن جاءت بعدها « أم » قدرت منقطعة بمعنى « بل » أي بمعنى الإضراب عن سابق الكلام -بشرط أن يكون ما بعدها جملة، وذلك كقول الشاعر:

ولست أبالى بعد فقْدِي مالكاً أموتَى نَاء، أو هو الآنَ واقعُ

فالسؤال بالهمزة عن النسبة، و « أم » للإضراب عن الكلام السابق، ويكون السؤال: أموتى الآن واقع؟

وبهذا نعرف أ، همزة الاستفهام تأتي للتصور كما في الآيتين، كما تأتي للتصديق كما في البيتين.

٢-هل: أما « هل » فتأتي للتصديق فقط. مما تقدم يتبين لنا أن « همزة الاستفهام » تأتي أحياناً للتصور وأحياناً للتصديق، بينما « هل » تدل لا تكون للتصديق فقط.

ولما كانت « هل » لطلب التصديق:

(أ)امتنع أن يقع بعدها « أم » المتصلة، ولذلك يمتنع أن يقال: هل الأرض كروية أم منبسطة؟ » ، لأن « هل » تدل على أن مضمون الجملة مجهول -وهي النسبة، والسؤال عنها- ووقوع المفرد بعد « أم » دليل على أنها متصلة، وهي تدل على أن مضمون الجملة معلوم والمطلوب تعيين أحد الأمرين: المفرد الذي قبلها أو المفرد الذي بعدها، فالجمع بين « هل ، وأم » في مثال واحد يؤدي إلى التناقض.

(ب)ويقبح استعمال « هل » في كل تركيب يتقدم على الفعل مثل: هل فقيراً أطعمت؟ وذلك لأن تقديم المفعول -في الغالب- يدل على أن المتكلم عالم بالنسبة

-إذا كان التقديم للتخصيص -والسؤال إنما هو عن المفرد، و « هل » لا تكون إلا لطلب التصديق الذي هو إدراك النسبة، وإذا كان التركيب مما يقتضي -غالباً- أن النسبة معلومة كانت « هل » هنا لطلب حصول الحاصل، وهو عبث.

وإنما لم يمتنع مثل هذا التركيب لاحتمال أن يكون الاسم المتقدم مفعولاً لفعل محذوف يفسره، ما بعده، أو أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام، فلا يكون هناك تقديم للتخصيص.

كما يقبح دخول « هل » على النكرة لما يفيده مثل هذا التركيب من الاختصاص على رأي السكاكي، مثل: هل رجل سافر؟

وإذا حصل التقديم هذا مع « همزة الاستفهام » كان الكلام فصيحاً سواء كان المتقدم منصوباً أم مرفوعاً، مثل: أفقيراً أطعمت؟ أسعيدٌ سافر؟

وأما « هل سعيداً أطعمته؟ » فإنه يصح، لأن الفعل هنا مشغول عن الاسم المنصوب بضميره، ومن أجل ذلك كان الكلام على تقدير فعل محذوف هو الناصب لسعيد، ويكون هذا الفعل مقدماً على المنصوب، فبهذا تكون « هل » وَلِيَتْ الفعل.

وكما أن « هل » تفيد التصديق فقط، فهي أيضاً تخلص الفعل المضارع للاستقبال -شأنها كالسين وسوف- فلا يصح أن تقول: هل تعوم والبحر هائج؟ لأن الغرض التوبيخ، وهو يكون على أمر واقع في الحال- ولكن يصح دخول « الهمزة » بدلاً من « هل آ ، فتقول: أتعوم والبحر هائج؟ لأنها يصح دخولها على الفعل الواقع في الحال، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٨].

ونظراً لاختصاصها بالتصديق -وهو إدراك النسبة- وهذا يتوجه بطبيعته إلى المعاني لا إلى الأفراد -أي إلى الفعل دون الاسم- ولأنها تخلص الفعل المضارع للاستقبال، كان لها مزيد اختصاص بالفعل ودخولها عليه -لفظاً أو تقديراً- فإذا جاءت « هل » في أي تركيب معدولاً بها عن الجملة الفعلية إلى

الاسمية كان ذلك لنكتة بلاغية، وهي: أن يجعل ما سيوجد كأنه موجود وحاصل، اهتماماً بشأنه.

ويلجأ إلى هذا الأسلوب الأديب العارف بأسرار اللغة العليم بخصائص البيان، لذلك نرى القرآن الكريم يختار هذا الأسلوب فيقول: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٨٠] فيعدل عن الجملة الفعلية إلى الاسمية تفيد تأكيد المعنى، وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية، لذلك كان تأثير الجملة الاسمية أقوى من الجملة الفعلية في بعض المقامات، ولأن إبراز ما سيحصل -وهو مفاد الجملة الفعلية- في معرض الحاصل الثابت -وهو مفاد الجملة الاسمية- أقوى دلالة على كمال العناية بحصوله.

وكذلك الآية أدل على الشكر مما لو قيل: « فهل أنتم تشكرون » ؟ لأن « هل » داخلة في الحقيقة على الجملة الفعلية تقديراً، لأن الضمير « أنتم » فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور.

وبهذا نرى أن « همزة الاستفهام » تأتي للتصور والتصديق، و « هل » للتصديق فقط.

أما باقي أدوات الاستفهام فتكون للتصور فقط، وأمثلتها كالآتي:

٣-من: ويستفهم بها عن العاقل. مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[فصلت:١٥].

٤-ما: ويستفهم بها عن غير العاقل. مثل قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٢].

٥-متى: ويستفهم بها عن الزمان، ماضياً أو مستقبلاً مثل، متى حضرت، ومتى تسافر؟ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يس:٤٨].

٦-أيان: ويسأل بها عن الزمان المستقبل، وتستعمل في مواضع التفخيم والتهويل، مثل قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة:٦].

٧-أين: ويسأل بها عن المكان، مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ [القيامة:٧-١٠].

٨-كيف: ويسأل بها عن الحال: مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية:١٧].

٩-أنى: تكون بمعنى (كيف)، مثل: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾[آل عمران:٤٠]، وبمعنى (من أين) مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾[آل عمران:٣٧]، وبمعنى (متى) مثل قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[البقرة:٢٢٣].

١٠-كم: يستفهم بها عن العدد، مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾[الكهف:١٩].

١١- أي: وتستعمل في تمييز أحد المتشاركين في أمر يعمهما، مثل قوله تعالى: ﴿ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم:٧٣].

كما تضاف إلى العاقل وغيره، والزمان والمكان، والحال وغيره فتكون بحسب ما تضاف إليه.

واستعمال تلك الأدوات في معانيها الحقيقية لا يحقق هدفاً في علم البلاغة، لأنها بحوث نحوية بحتة، وإنما تذكر تمهيداً ومقدمة للمعاني المجازية التي تستفاد منها.

الخلاصة:

الاستفهام طلب العلم بشيء مجهول بواسطة إحدى أدواته، ومنها:

١-الهمز: ويطلب بها أحد أمرين:

أ-التصديق -وهو طلب النسبة.

ب-التصور: وهو طلب تعيين المفرد، والمسئول عنه هو ما يليها مباشرة، وله معادل يذكر بعد « أم » ويجوز حذفه.

٢-هل: تختص بالتصديق،ويمتنع معها ذكر المعادل.

٣-بقية الأدوات تختص بالتصـــور، وهي: من، ما، متى، أيان، أين، كيف، أنى، كم، أي.

المعاني المجازية للاستفهام.

يخرج الاستفهام عن معانيه الأصلية إلى معان أخرى مجازية تستفاد من السياق وتعرف بالقرائن، وهي كثيرة عد منها السيوطي واحداً وثلاثين موضعاً، ومن أهم تلك الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام:

١-النفي: مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقول الشاعر:

هل الدهر إلا غُمَرٌ وانجلاؤها وشيكاً، وإلا ضِيقَةٌ وانفراجُها

فالاستفهام في كل ذلك، ليس الغرض منه السؤال عن مجهول، وإنما المراد منه النفي.

ولعل السر في جمال أسلوب الاستفهام والعدول إليه عن أسلوب النفي، هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداء.

٢-التعجب: مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود:٧٢]، وقوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ [النمل:٢٠]، وقول المتنبي:

أبنت الدَّهر، عندي كل بنتٍ فكيف وصلت أنت من الزِّحام؟!

فالمراد من الاستفهام في النصوص السابقة: التعجب، وفي عجز الآية الأولى ما يدل على المراد.

٣-الاستبعاد: كقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان:١٣-١٤]، وقول الشاعر:

مَـنْ لي بـإنســـان إذا أغْضَــبـتُـه   وجهلـت كـان الحلم ردَّ جوابـه؟

فكل تلك النصـوص يدل الاسـتفهام فيها على الاسـتبعاد، وفي عجز الآية الأولى ما يدل على المقصود.

٤ـالأمر ـبصـورة لينة ـ : كقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾[آل عمران:٢٠]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١]، وقوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [الحديد:١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:٣٢].

فالاستفهام في كل تلك النصوص، المراد منه الأمر (أي: أسلموا، انتهوا، أقرضوا، اذكروا).

وإيراد الأمر بصـورة الاسـتفهام، فضـلاً عما فيه من تعبير مؤدب ـلأنك تترك مخاطبك بالخيار بين أن يفعل وألا يفعل.

٥ـالتمني: كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ [القيامة:٧-١٠]، وجعل منه ابن قتيبة قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق:٣٠] فهل الثانية تفيد معنى تمني جهنم للمزيد من الوقود.

أما قوله تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤]، جعل بعض العلماء الاسـتفهام في الآية للاسـتنباط، والزمخشري، جعله للتمني والقاضي عبدالجبار جعله للدعاء، ورَدَّ على من قال إنه للاسـتنباط وقال: « إنهم قالوا ذلك على وجه المسـألة والدعاء خوفاً على ما يلحق المسلمين من جهة الكفار ».

٦ـالتشويق: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف:١٠].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [آل عمران:١٥].

وقوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات:١٥-١٦].

وقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

فالاستفهام في تلك الآيات ليس المراد منه الاستفهام الحقيقي وإنما المقصود منه التسويق.

٧-التحقير: مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٠]، وقوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٢]، وقوله: ﴿ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾[الأنبياء:٣]، فالاستفهام المراد من الآيات هو التحقير.

٨-التقرير: المراد به حمل المخاطب على الإقرار بأمر قد استقر عنده يعرفه، ويشترط فيه أن يذكر بعد الهمزة ما حمل المخاطب على الإقرار به. ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٢] فليس مراد الكفار حمله على الإقرار بأن كسر الأصنام قد كان، بل مرادهم: حمله على الإقرار بأن الكسر قد كان منه لا من غيره، بدليل إشارتهم إلى الفعل في قولهم: أأنت فعلت هذا؟، فإن ذلك يقتضي أن المطلوب الإقرار بالفاعل لا بالفعل، وبدليل قول إبراهيم لهم: ﴿ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا ﴾ ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة:١١٦] فإن الهمزة فيه للتقرير بما يعرفه عيسى عليه السلام من هذا الحكم، وهو أنه لم يصدر منه هذا القول، وليس المراد التقرير بالفاعل وهو أنه فاعل لهذا القول، لأن ذلك مستحيل على عيسى عليه السلام .

وابن جنى يفصح عن المعنى في هذه الآية فيقول: « لم يقول للناس

اتخذوني وأمي إلهين من دون الله... » ثم بين وجه الاستفهام إذا دخل على النفي فيقول: النفي عائد إلى الإثبات ، ويمثل للأول بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾[يونس:٥٩] أي لم يأذن لكم، ويمثل للثاني بقول جرير في مدح بني أمية:

ألستم خير من ركب المطَايَا وأنْدى العالمين بطون راح

« فجرير لم يستفهم على سبيل الحقيقة لأن فضل بني أمية لا يجهله أحد، ولو كان استفهاماً لما أعطاه الخليفة مائة من الإبل برعاتها.

فالاستفهام في التقرير للنفي، فإذا دخل على النفي كان الكلام موجباً ولذا يعطف عليه الموجب الصريح، ويعطف هو على الموجب الصريح، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل:٢-٣] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٨] ففرعون يعلم أن موسى عليه السلام عاش في مصر وليداً.

وفي العدول عن الإخبار إلى الاستفهام حمل المخاطب على الاعتراف بعد التدبر والأناة، ندرك ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢].

٩-الإنكار: ويشترط فيه أن يلي المنكر الهمزة، لأن الإنكار مآله النفي، فكما أن أداة النفي تدخل على ما أريد نفيه، تدخل الهمزة على ما أريده إنكاره، فعلاً كان أو مفعولاً، أو غيرهما.

فمثال إنكار الفعل قوله تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٠].

فالمراد استنكار ارتكاب الفاحشة من قوم لوط، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٤]، وقول الشاعر:

أيقتلني والمَشْرفي مُضاجِعِي ومسنونة زرق كأنياب أغْوال؟

فالهمزة في كل ذلك داخلة على الفعل المراد إنكاره.

ولإنكار الفعل صورة أخرى لا يلي فيها الفعل الهمزة: وهي أن يلي الهمزة معمول الفعل المنكر، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [الأنعام:١٤٣] فالغرض من الإنكار إنكار الفعل نفسه وهو التحريم، فإنه إذا نفى الفعل عما جعل فاعلاً له في الكلام ولا فاعل غيره لزم نفيه من أصله، فيكون أبلغ.

ومثال إنكار الفاعل قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[الزخرف:٣٢] فالمنكر أن يكونوا هم القاسمين، لا القسمة نفسها، لأن القاسم للرحمة هو الله، ومثله قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾ [الزخرف:٤٠].

والمعنى أفأنت تقدر على هداية البشر؟ إنما يقدر على ذلك الله سبحانه.

والهمزة أكثر أدوات الاستفهام دلالة على الإنكار، ونسبة الإنكار بها إلى جملة أساليب الإنكار في القرآن كله هي نسبة ٣٣%، كما أن الإنكار أكثر الأغراض البلاغية للاستفهام في القرآن، ونسبته إلى مجموع الاستفهام في القرآن هي نسبة ٦٤% » .

٥ـالنداء.

١ـقال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [هود:٤٢].

٢ـوقال تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا ﴾ [يوسف:٤٦].

٣ـقال أبو فراس في وهو أسر الروم ينادى سيف الدولة:

أسـيف الهُدَى وقَريعَ العرب ... إلاَمَ الجفاءُ، وفيمَ الغَضب

وما بال كُتبك قد أصبحت ... تنكبنى مع هذي النُّكَب

٤ـقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [مريم:٤٤ـ٤٥].

٥ـقال جرير يهجو:

فَخَلِّ الفَخْر يابْنَ أبي خُلَيْدِ ... وأدِّ خَراجَ رأسك كلَّ عامِ

٦ـقال الشاعر:

يأيها السَّادر المزور من صلفٍ ... مهْلاً فإنَّك بالأيامِ منْخَدِعُ

من الأمثلة السابقة نلاحظ أن النداء: طلب إقبال المخاطب على المتكلم ليصغى إلى أمر ذي بال.

ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [المزمل:١ـ٢]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة:٨٧].

وحرف النداء ينوب عن فعل محذوف تقديره « أدعو » وقد تحذف أداة النداء كما في الآية الثانية، ومثلها قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [الذاريات:٣١].

ولا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادى مجرداً من حرف النداء، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٠].

وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن لم يعثر عليه مسبوقاً بحرف النداء إلا في تلك الآية الكريمة ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٨-٨٩]، وألمح في المجيء بحرف النداء هنا خاصة تعبيراً عن حالة نفسية ألمت بالرسول ﷺ وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم ، فأطبق الهم على فؤاده، وكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته وبعده عن أن يمد إليه يد المساعدة، فأتى بحرف النداء، كأنما يريد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله، واستجلاب رضاه ».

وأدوات النداء هي: (الهمزة، أي) وهما لنداء القريب، وبقية أدوات النداء للبعيد وهي: (يا، آ، أيا، هيا، وا) ولم يستخدم القرآن من أدوات النداء سوى « يا ».

وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بـــ (الهمزة، وأي) لغرض بلاغي وهو الإشعار بأنه حاضر في الذهن لا يغيب عن الخاطر، وهذا ما فعله أبو فراس في بيته السابق، فهو ينادى سيف الدولة على الرغم من أنه كان أسيراً في بلاد الروم بعيداً عن المخاطب.

كما قد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى عليه بـــ « يا وأخواتها » وذلك لغرض بلاغي يهدف إليه المتكلم وهو الإشعار ببعد منزلته وعلو مكانته ، فيَنْزَّلُ بعد منزلته منزلة بعد مكانه، كما في الآية ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ [مريم:٤٤] فقد كان الخطاب من سيدنا إبراهيم في مواجهة أبيه.

كما ينزل القريب منزلة البعيد إشارة إلى أن المنادى وضيع المنزلة منحط المرتبة، وكأنه بعيد عن القلب فينزل هذا البعد النفسي منزلة البعد المكاني فيستعمل فيه « يا »، وذلك كبيت جرير السابق في استعماله لياء النداء في هجاء ابن أبي خُلَيْد.

وقد ينزل القريب منزلة البعيد لأنه غافل وكأنه بعيد وغير حاضر فيستعمل

معه « يا » كالمثال السادس.

وقد تخرج صيغ النداء عن معناها الأصلي إلى أغراض أخرى بلاغية تفهم من السياق منها:

١-التعجب: كقول امرئ القيس:

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذْبُلِ

وقول الفرزدق يهجو جريرا:

فوا عجباً حتى كليب تسبني كأن أباها نهشل أو مجاشع

٢-التحسر: كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ [النبأ:٤٠].

وقول الآخر:

دعوتك يا بُنَيَّ فلم تُجِبني فرُدَّت دعوتي يأساً عليا

٣-الاستغاثة: كقول الشاعر:

يا لقومي وبالأمثال قومي لأناس عُتُوُّهُم في ازدياد

٤-الزجر: كقول الشاعر:

أفؤادي متى المتاب، ألما تصح، والشيب فوق رأسي ألمّا

الندبة: كقول الشاعر:

واَحرَّ قلباه ممَّن قلبه شبمُ ومَنْ بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

٦-الإغراء: كقولنا لمن أقبل يشكو ويتظلم: يا مظلوم تكلم. نريد حثه على بث الشكوى، ويا شجاع أقدم، لمن يتردد في الإقدام.